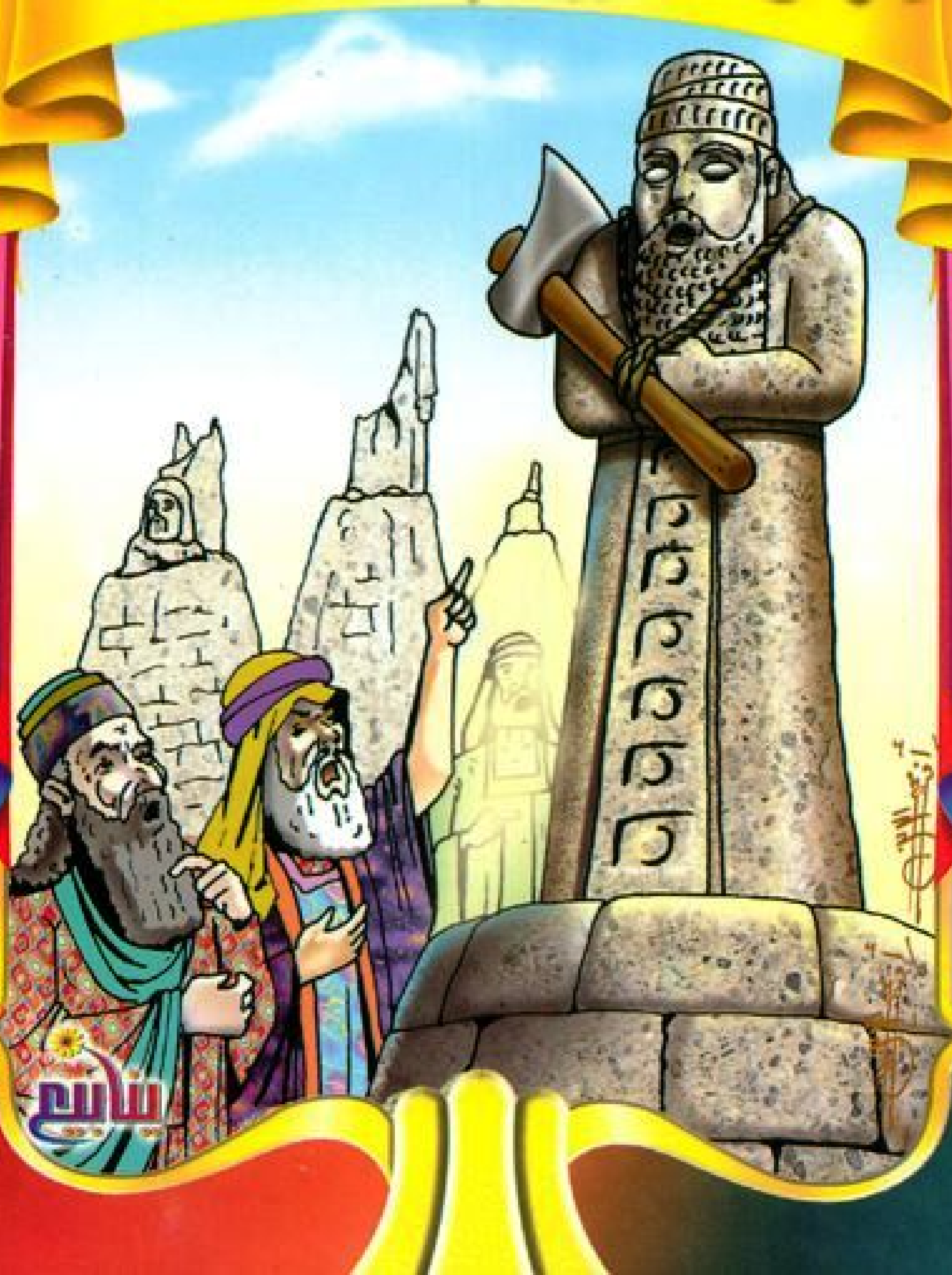
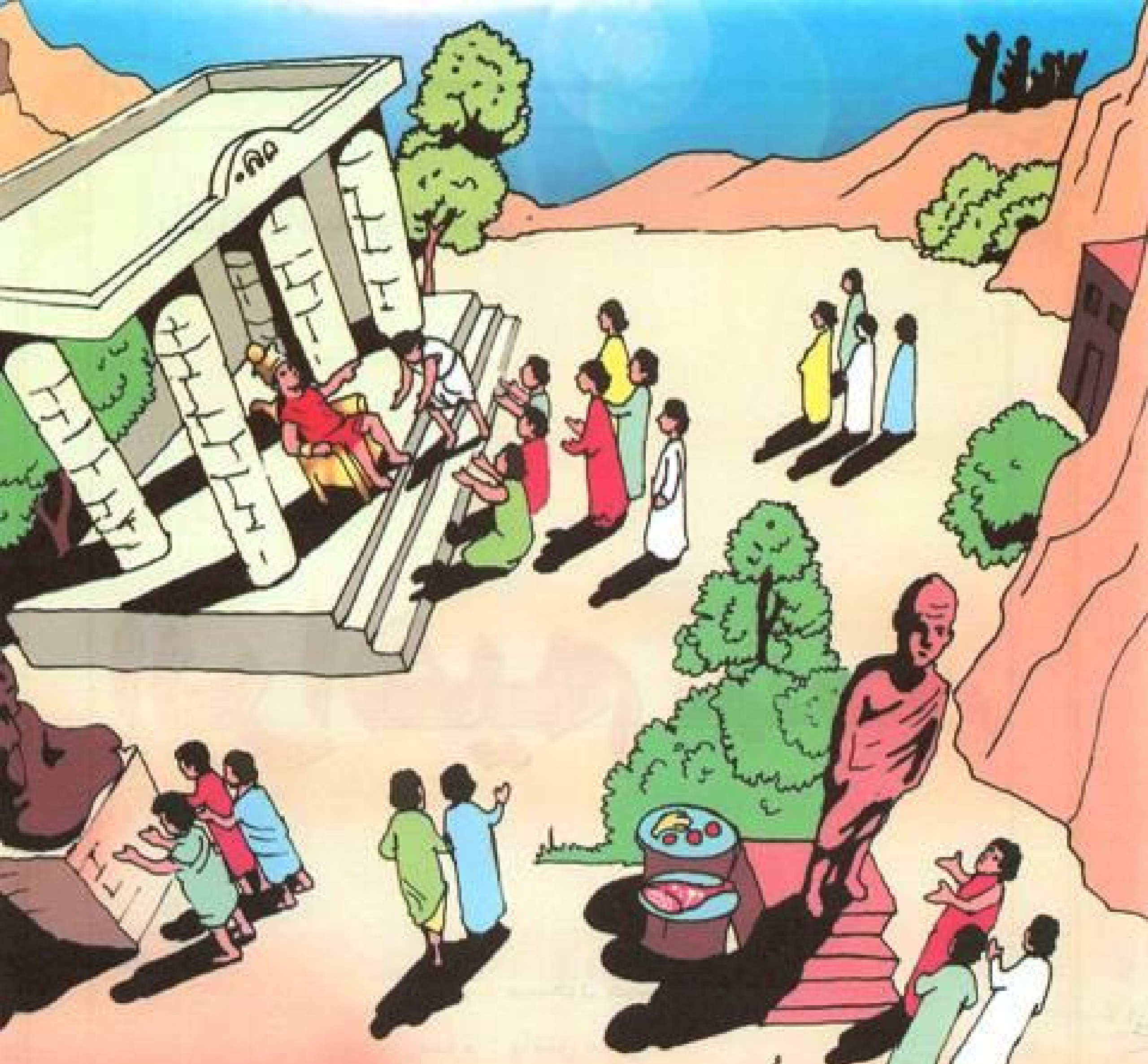
سلسلة قصص الأنبياء والمرسلين

إبراهيم عليه السلام



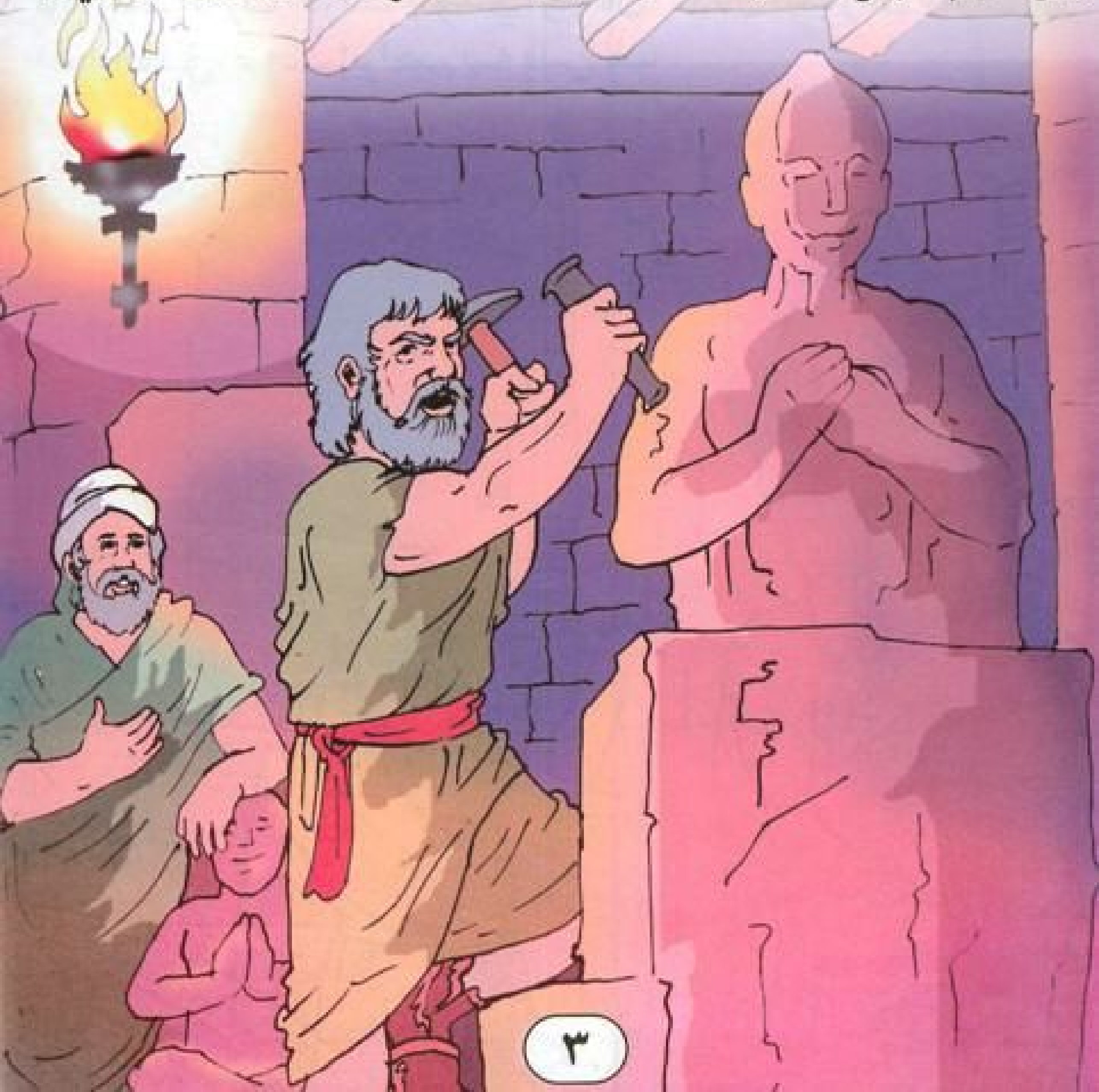


وُلد إبراهيم عليه السلام في قوم لا يؤمنون بوحدانية الله تعالى، بل لم يجتمع قوم إبراهيم على عبادة إله واحد أو آلهة معينة، بل كان كل فريق يعبد آلهة خاصة به، تختلف عن الأخرى.

فهناك من الناس من يعبد الأصنام والتماثيل المصنوعة من الخشب والحجر. وطائفة من الناس تعبد الكواكب والنجوم والشمس والقمر. وجماعة ثالثة تعبد الملوك والحكام، فيسجدون لهم، ويعبدونهم من دون الله.

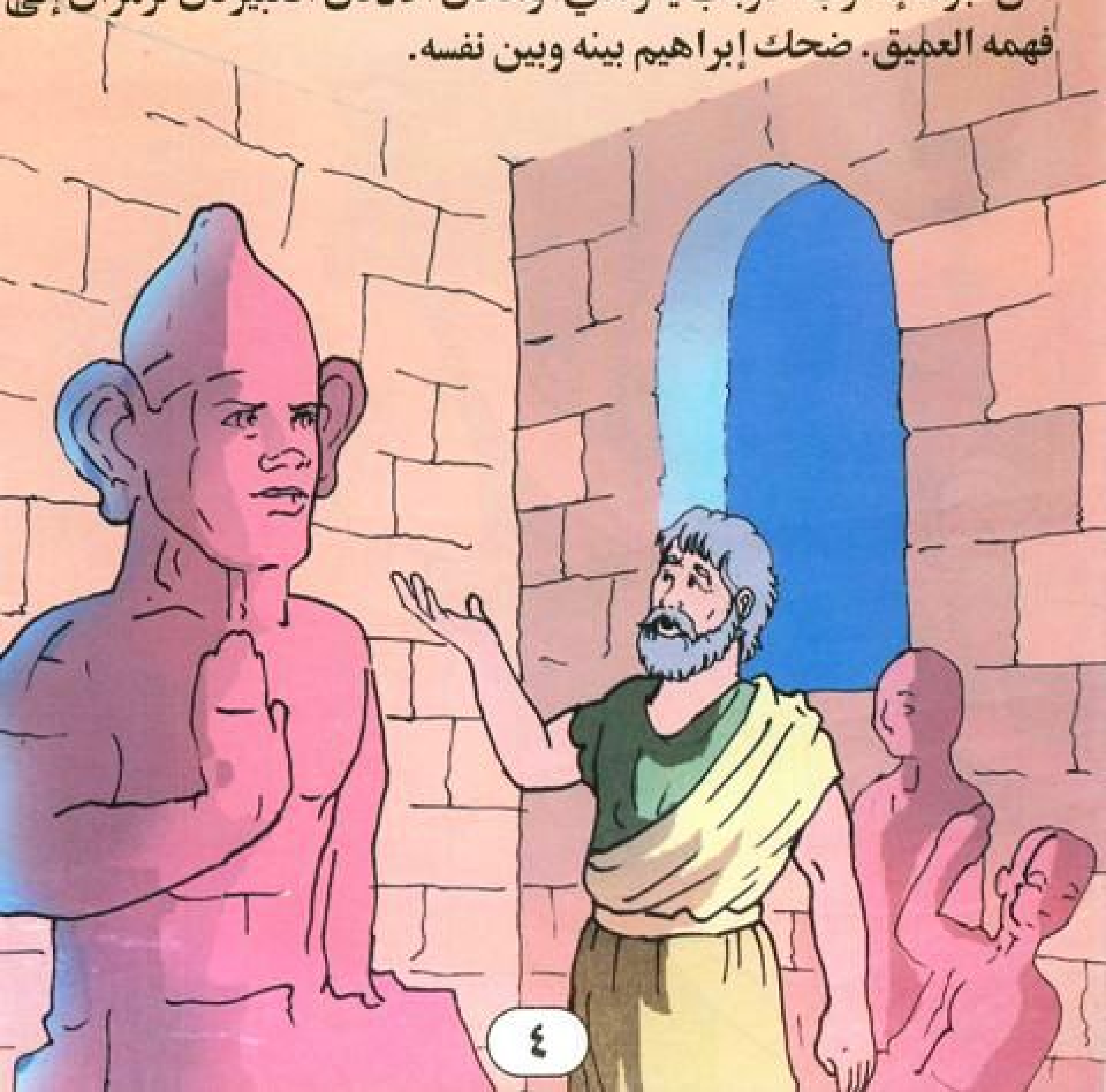
في هذا المجتمع وُلد إبراهيم عليه السلام، لقد وُلد في بيت يصنع صاحبه الأصنام والتماثيل، ويبيعها للناس.

وكان والد إبراهيم أشهر صانع للأصنام والتماثيل. وكان هذا الأمر يعطي لصاحبه مكانةً خاصة، وكم كان يتمنى أبوه أن يكبر إبراهيم ليكون كاهنًا كبيراً بين الناس، وكان كلما زاره أحد من الناسِ يصرح لهم بأمنيته، ويقول لهم: كم أتمنى أن يكون إبراهيم كبيرا للكهنة، لابد أن أعده لهذه المكانة العالية.

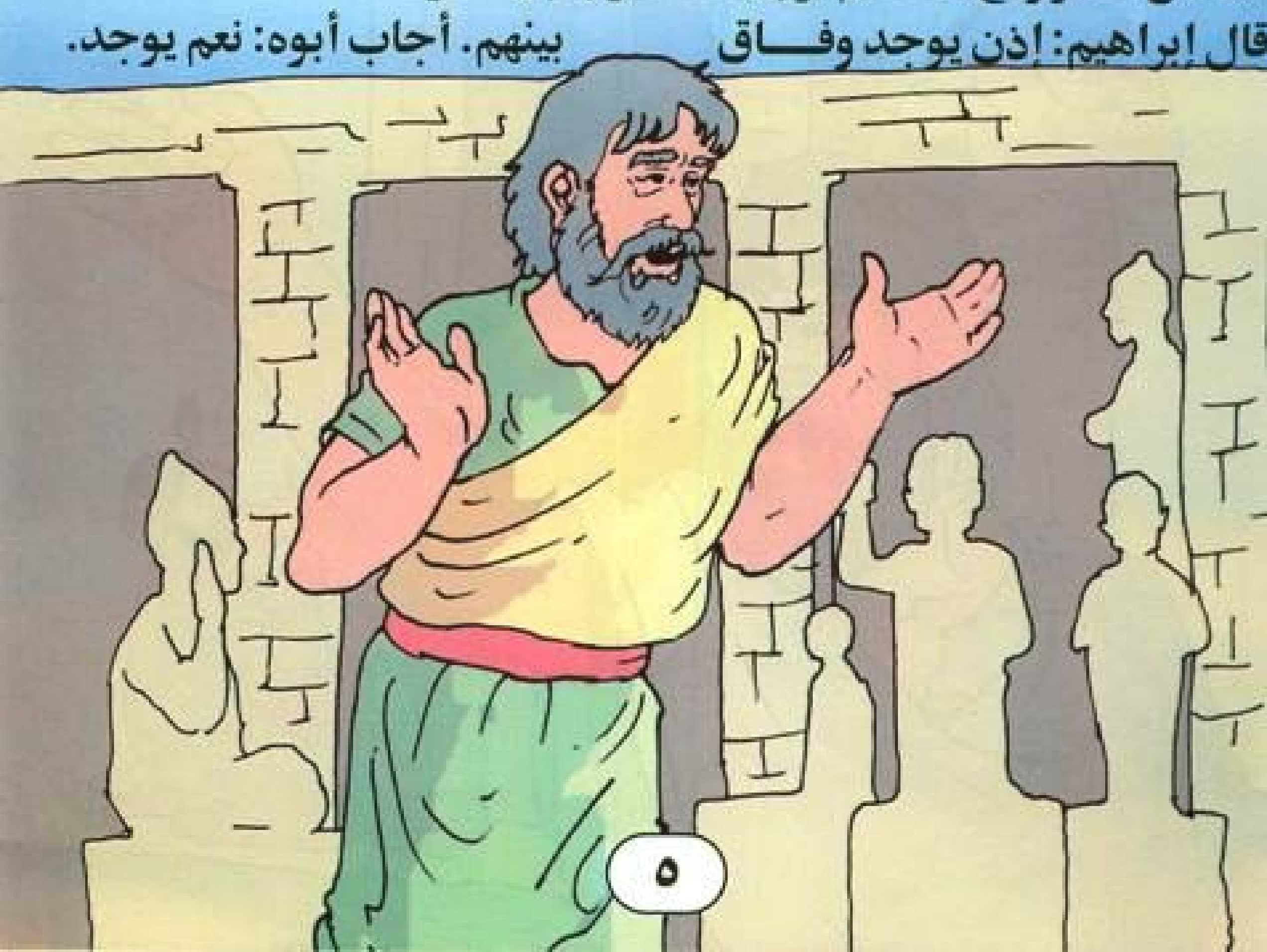


كان إبراهيم يرى أباه يصنع التماثيل، فيسأله وهو يندهش، ما هذه يا أبت؟ فيقول: إن آلهة التماثيل يا بني ولكن إبراهيم لم يصدق مثل هذا الكلام. ولما كان إبراهيم في السابعة من عمره، فكان يلعب وهو طفل بهذه التماثيل ويمتطي ظهورها مثلما يمتطي الناس ظهور الخيل والحمير والبغال. وشاهده أبوه يوماً يركب ظهر أحد التماثيل، وغضب الأب وأمر ابنه ألا يلعب بهذا التمثال مرة ثانية.

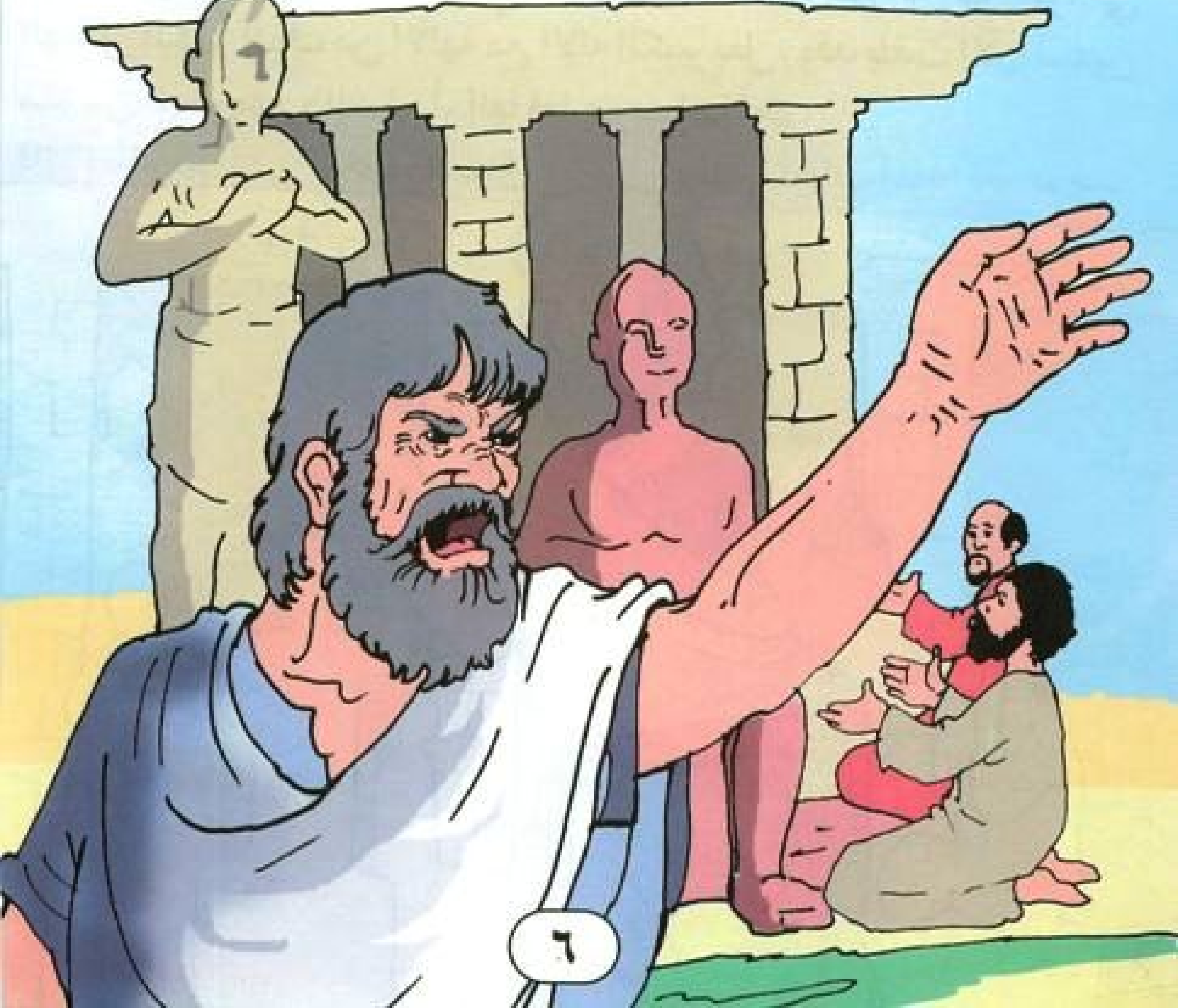
فسأله إبراهيم: أي تمثال هذا يا أبي...؟ إن أذنيه كبيرتان .. أكبر من آذاننا. قال أبوه: إنه رب الأرباب يا ولدي، وهاتان الأذنان الكبيرتان ترمزان إلى فهمه العميق. ضحك إبراهيم بينه وبين نفسه.



وفي يوم من الأيام سأل إبراهيم والده: من صنع الإنسان يا أبي؟
فأجابه الأب: الإنسان، لأني أنا صنعتك وأبي صنعني.
فقال إبراهيم: ليس الأمر كذلك يا أبي. لأني سمعت شيخًا ينتحب ويقول: يا إلهي.. لماذا لم تعطني أولادًا؟
قال الأب: حقًا يا بني .. الله يساعد الإنسان ليصنع إنسانًا، ولكنه لا يضع يده فيه.
فقال إبراهيم: كم إلهًا هناك يا أبي؟ أجاب أبوه: لا عدد لهم يا بني. قال إبراهيم: ماذا أفعل يا أبي إذا خدمت إلهًا وأراد بي الآخر شرا لأني لم أخدمه؟ ماذا لو وقع شقاق وخصام بين الآلهة؟ ماذا لو قتل الإله الذي يريد بي شرا؟ ماذا أفعل..؟ من المؤكد أنه يقتلني أنا أيضًا.
أجاب أبوه وهو يضحك: يا بني لا تخف لأنه لا يخاصم إله إلهًا آخر. في الهيكل الكبير ألوف من الآلهة مع الإله الكبير بعل، وقد بلغت الآن سبعين سنة من العمر ومع ذلك لم أر إلهًا قط ضرب إلهًا آخر.
قال إبراهيم: إذن يوجد وفـــاق بينهم. أجاب أبوه: نعم يوجد.

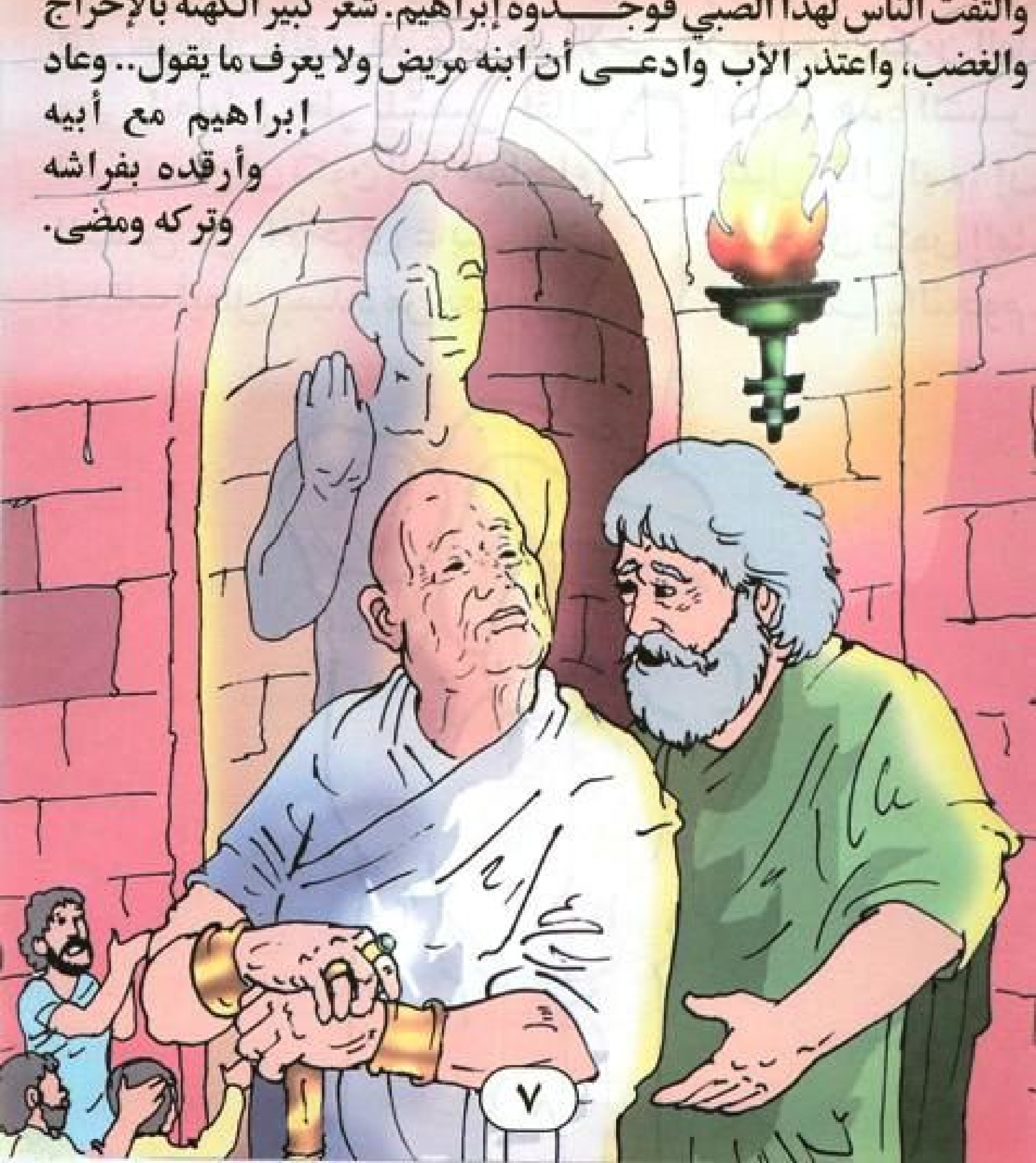


قال إبراهيم: من أي شيء تصنع الآلهة؟ قال الشيخ: من خشب النخل، ومن الزيتون، ومن العاج. انظر ما أجمله.. حقًا لا ينقصه إلا التنفس. قال إبراهيم: إذا لم يكن للآلهة نفس فكيف يهبون الأنفاس؟ وإذا لم تكن لهم حياة فكيف يعطون الحياة؟ من المؤكد يا أبي أن هؤلاء ليسوا هم الله! فغضب والده، وقال له: لو كنت كبيرًا لضربت رأسك بالفأس. قال إبراهيم: يا أبي .. إن كانت الآلهة تساعد على صنع الإنسان فكيف يصنع الإنسان آلهة؟ إذا كانت الآلهة مصنوعة من الخشب فإن إحراق الخشب خطيئة كبرى. ولكن قل لي يا أبت.. كيف وأنت تساعد الآلهة وتصنع منها أعدادًا هائلة.. كيف لم تساعدك الآلهة لتصنع أولادًا كثيرين فتصير أقوى رجل في القرية؟ فمد الأب يده وضرب إبراهيم...



ذهب إبراهيم مع أبيه إلى معبد التماثيل، وفي وسط المعبد كان هناك محراب يوضع فيه أكبر التماثيل، فلاحظ إبراهيم أن الناس تنحني للأصنام والتماثيل، وبكوا لها وتوسلوا أن تجيب دعاءهم. ووسط الاحتفال راح كبير الكهنة يوجه الحديث إلى تمثال كبير الآلهة أن يرحم قومه ويرزقهم. وبينما الناس سكوت، فإذا بإبراهيم يقول للكاهن: إنه لا يسمعك يا سيدي الكاهن.. ألا تلاحظ أنه لا يسمع؟

والتفت الناس لهذا الصبي فوجـدوه إبراهيم. شعر كبير الكهنة بالإحراج والغضب، واعتذر الأب وادعـى أن ابنه مريض ولا يعرف ما يقول.. وعاد إبراهيم مع أبيه وأرقده بفراشه وتركه ومضى.



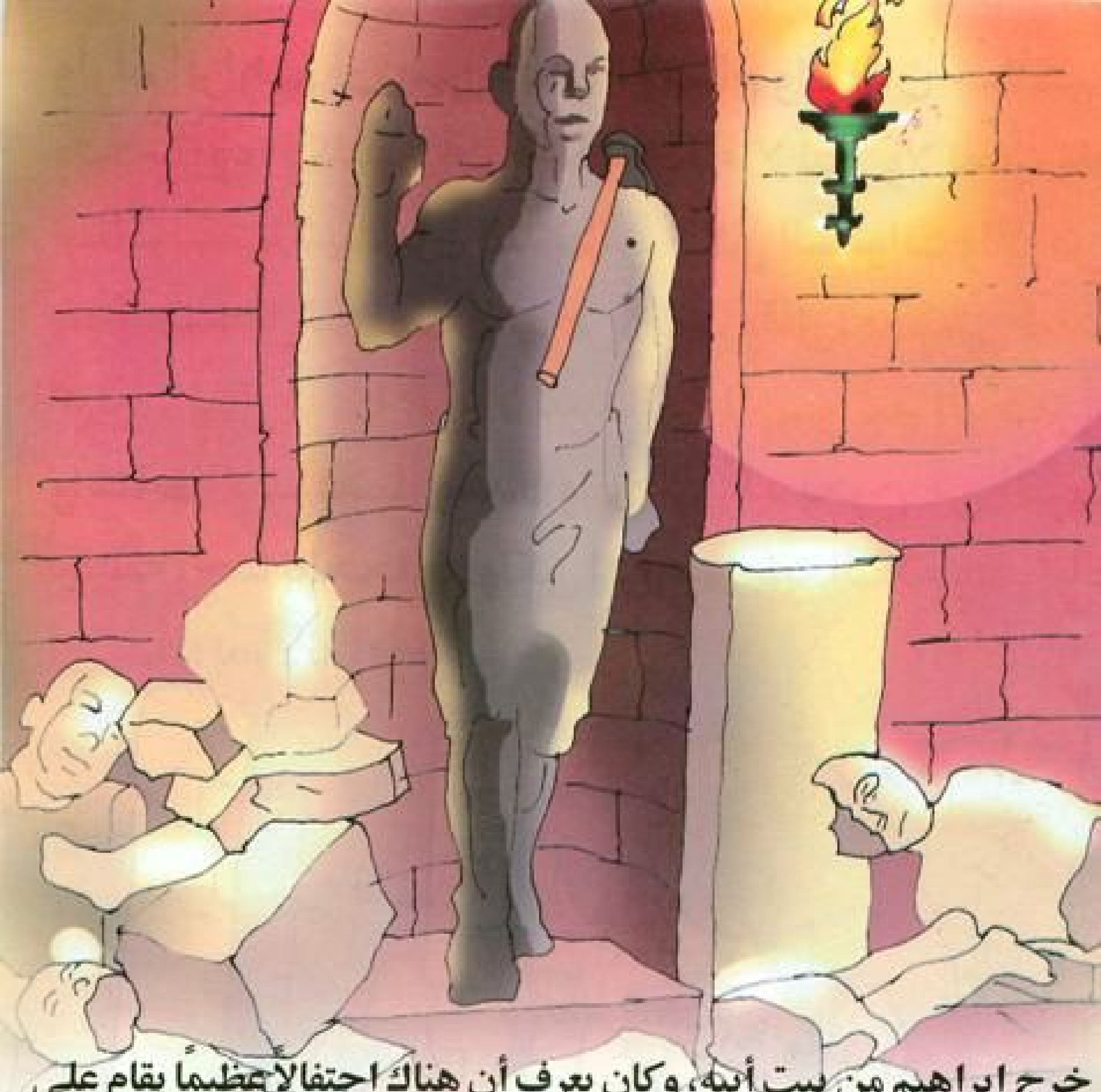
وبدأ إبراهيم عليه السلام يحاول تفهيم قومه، فبدأ بعبدة الكواكب، فخرج في الليل، وعاد ليقول لهم لما رأى كوكبًا، هذا ربي، ففرح قومه، ولم يعلموا ما كان يقصده إبراهيم، فلما كان الصباح اختفى الكوكب، فقال لهم: كيف للإله أن يختفي. ثم لما كان الليل نظر إلى القمر، وقال هذا ربي، فلما كان الصباح قال لقومه إن القمر قد غاب هو الآخر فلا يصلح أن يكون آلها.

وفي الصباح نظر للشمس فقال لقومه: هذه الشمس أكبر وتصلح أن تكون إلهًا، فلما جاء الليل، قال لهم: إن الشمس هي الأخرى غابت، فلا تصلح أن تكون إلها، وبذلك أبطل عقيدة من يعبدون الكواكب والنجوم.



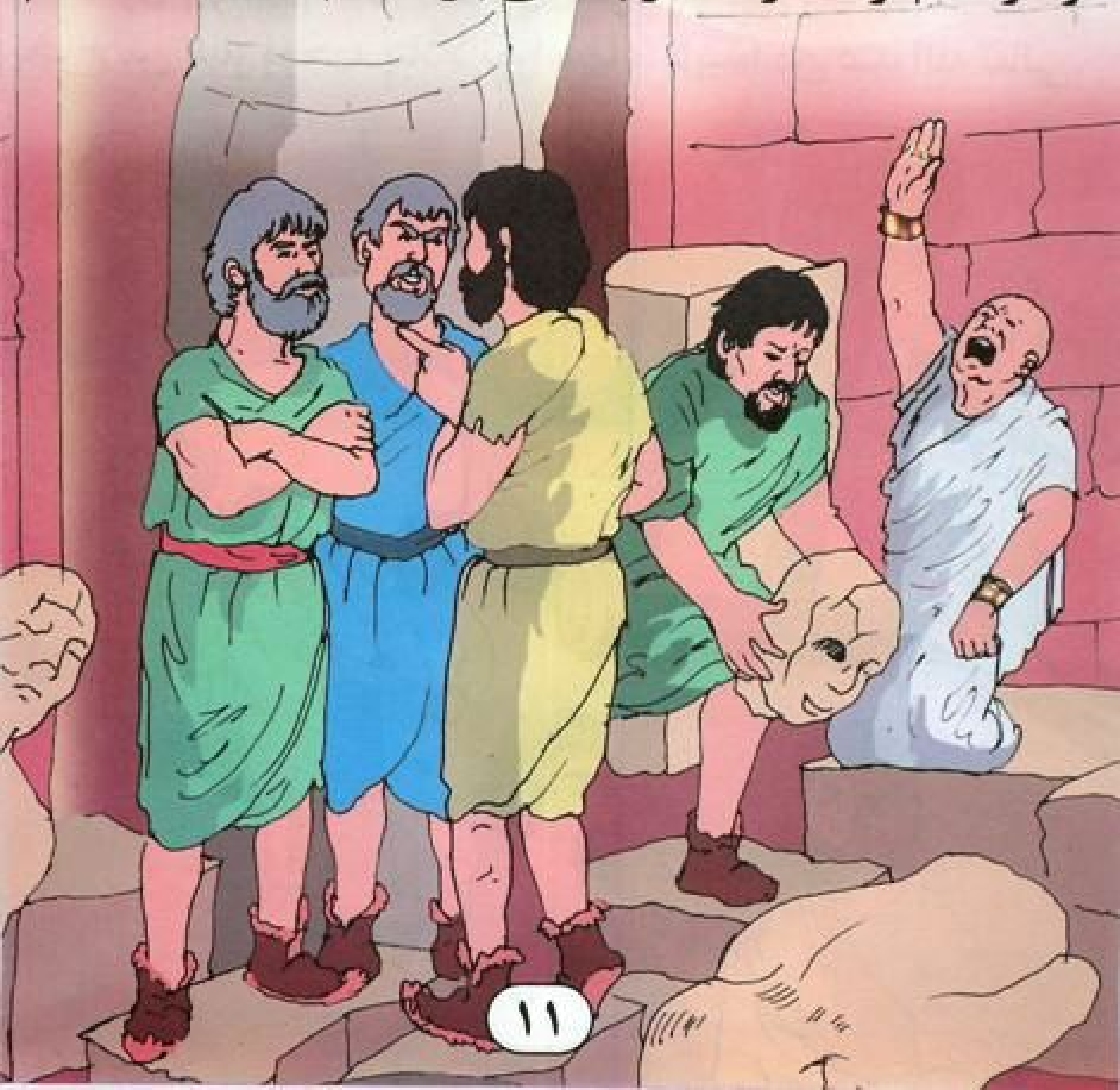
وأراد إبراهيم أن يبين لعبدة الأصنام والأوثان خطأهم، وفيهم أبوه، فكلمهم أن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع، ولا تملك لنفسها شيئًا، وأن الله تعالى خالق السموات والأرض هو المستحق للعبادة، فاعترض أبوه، وقال: مصيبتي فيك كبيرة، فقال له: يا أبي لا تعبد الشيطان، واتبع الرحمن، واشتاط الأب غضبًا، وهدد ولده لئن لم يخرج من القرية ليقتلنه رجمًا بالحجارة، ولكن إبراهيم عليه السلام وعد أباه أن يدعو له، لأنه أبوه.





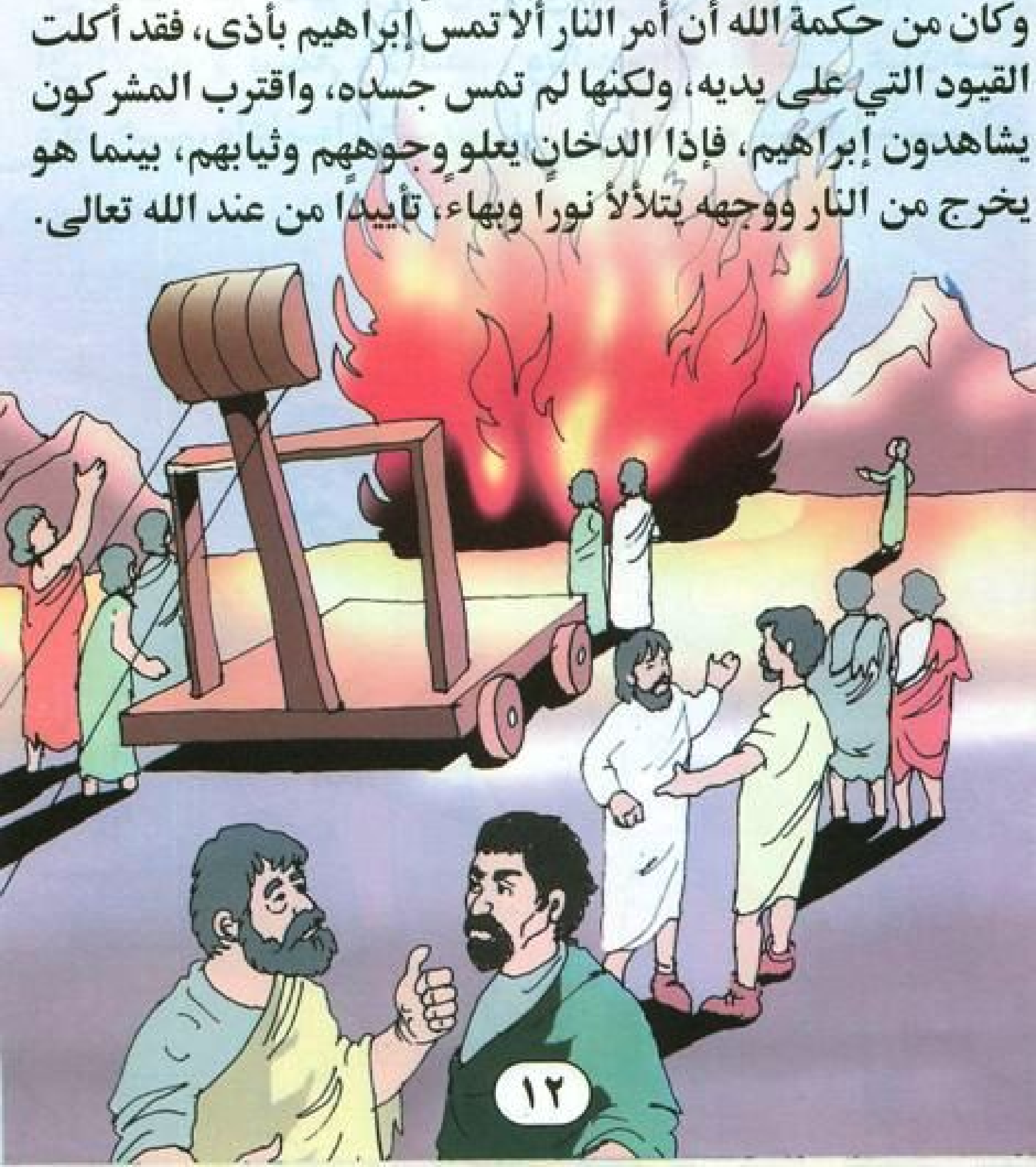
خرج إبراهيم من بيت أبيه، وكان يعرف أن هناك احتفالاً عظيماً يقام على الضفة الأخرى من النهر.
فخرج إبراهيم إلى المعبد، فكانت الشوارع خاوية، والمعبد مهجورا. دخل إبراهيم المعبد وهو يحمل فأساً، فوجد الطعام أمام الآلهة. فقال لهم ساخراً: «ألا تأكلون؟! ما لكم لا تنطقون» ثم هوى بفأسه على الآلهة، فتحولت الآلهة المعبودة إلى قطع صغيرة من الحجارة والأخشاب المهشمة.. ولم يترك إبراهيم منها إلا كبير الأصنام فقد تركه لهم «لعلهم إليه يرجعون». كي يسألوه عمن فعل ذلك الفعل؟

ولما ذهب القوم إلى المعبد فوجئوا بشيء لم يكن متوقعاً، فالأصنام كلها مهشمة، لم يبق منها إلا كبيرها، ونادى القوم بعضهم بعضاً، ثم تساءلوا من الذي جرأ أن يفعل ذلك، فتذكروا إبراهيم وكرهه للآلهة، فقالوا له: أنت الذي فعلت بآلهتنا هذا؟ فأشار إليهم أن يسألوا كبير الآلهة إن كان ينطق، فرجعوا إلى أنفسهم وتذكروا أن الآلهة لا تسمع ولا تبصر، ولكنهم أصروا على عنادهم وكفرهم، وأعلنوا الحرب على إبراهيم عليه السلام.



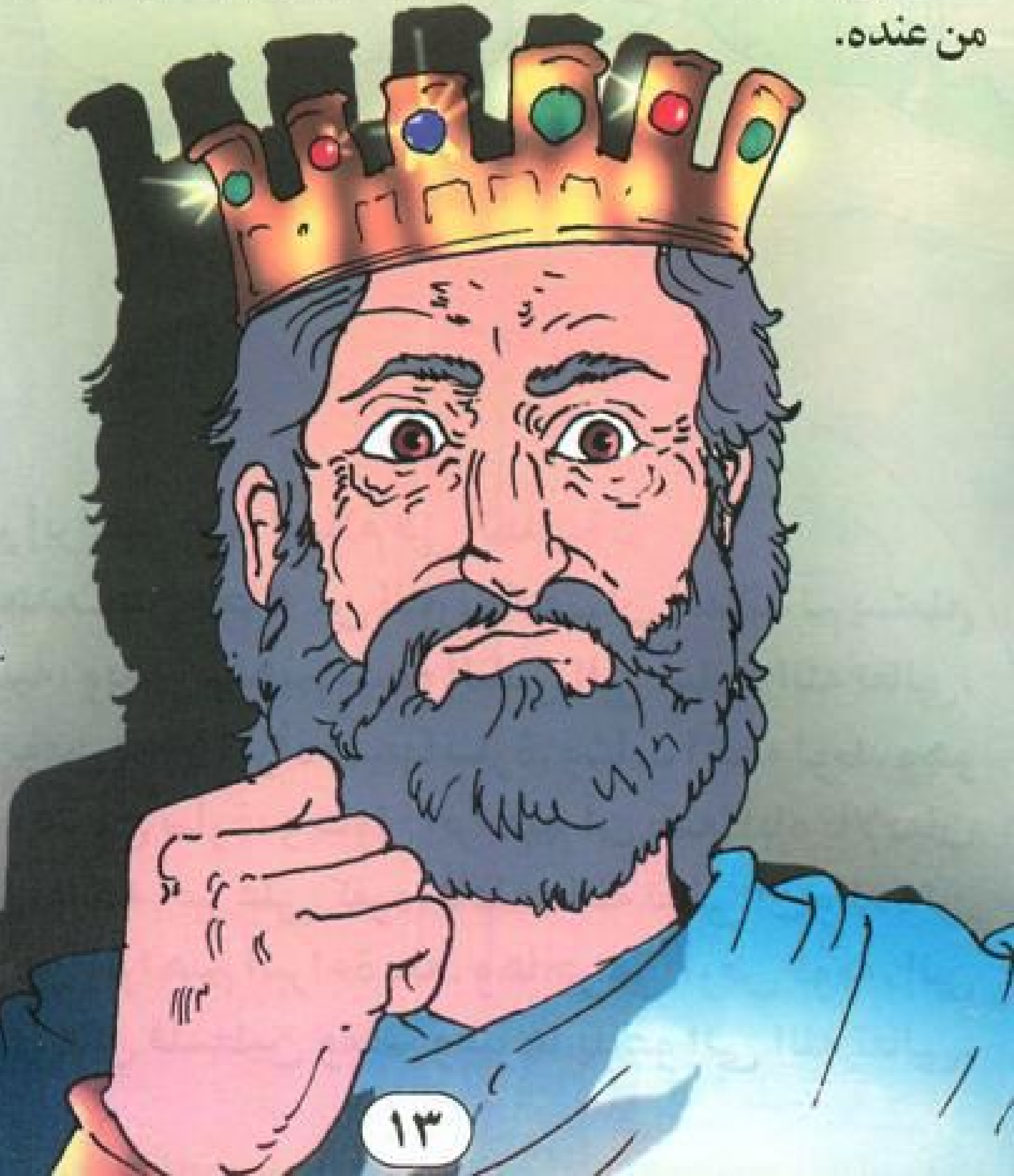
وطار خبر الحرب على إبراهيم في المدينة، لقد أمر حاكمهم أن تشعل نار عظيمة، وأن يلقى فيها إبراهيم، وأتي الناس من كل مكان لينظروا عقاب الذي سب الآلهة وكسرها، وأتِي بآلة تسمى المنجنيق، وهي تشبه المدفع، فوضعوا فيها إبراهيم، وأعملوها فألقت إبراهيم في النار البعيدة عن المكان.

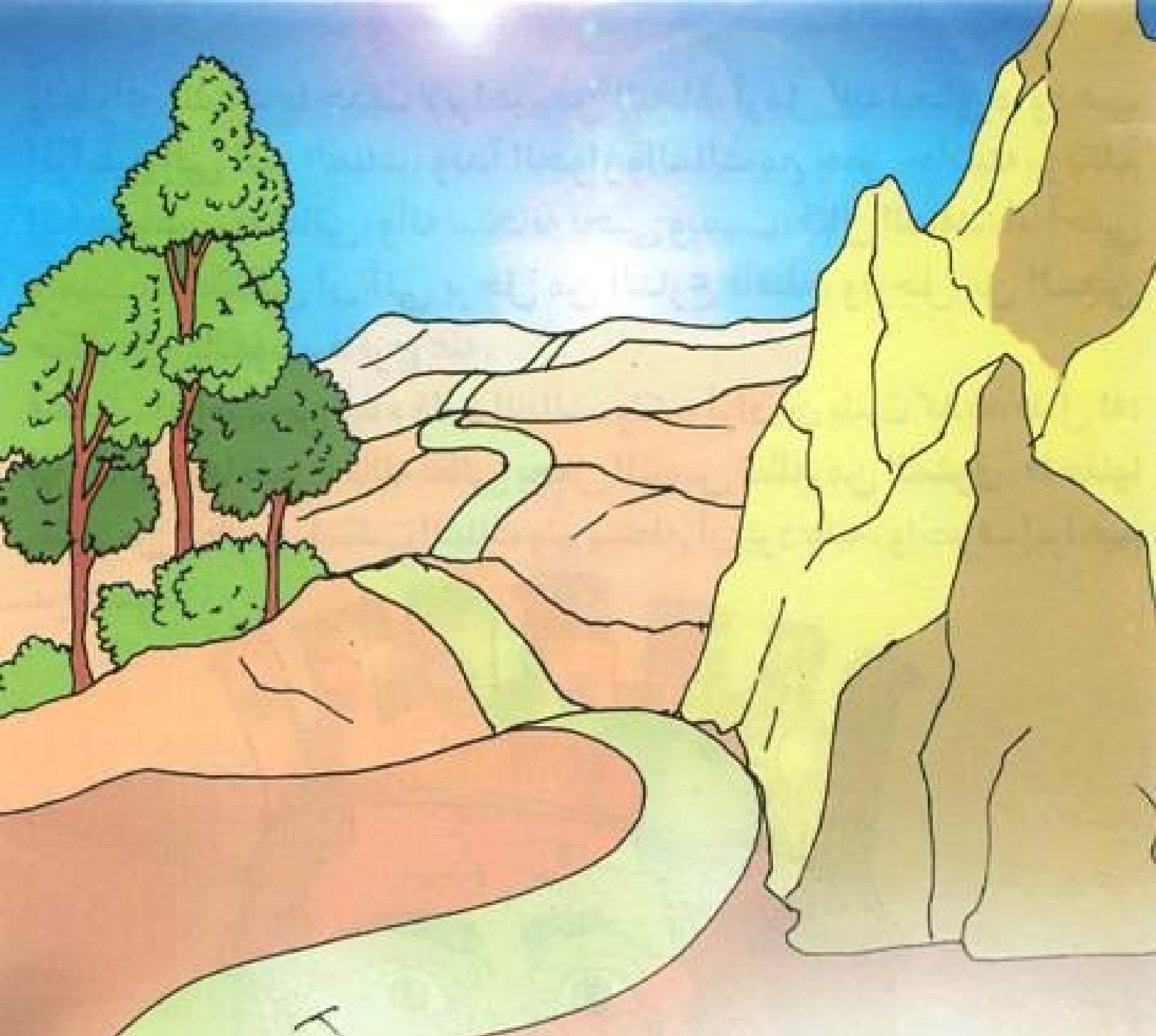
وكان من حكمة الله أنْ أمر النار ألا تمس إبراهيم بأذىً، فقد أكلت القيود التي على يديه، ولكنها لم تمس جسده، واقترب المشركون يشاهدون إبراهيم، فإذا الدخانِ يعلو وجوههِم وثيابهم، بينما هو يخرج من النار ووجهه يتلألأ نورا وبهاء، تأييداً من عند الله تعالى.



ولما رأى الملك ما حدث لإبراهيم من النجاة، أرسل إليه ليحاوره، وذهب إبراهيم إلى قصر الملك، وبدأ الحوار والملك مع بعض حاشيته، وتكلم إبراهيم عن ربه تعالى، وأنه سبحانه يحيي ويميت، فقال الملك: أنا أُحيي وأُميتِ، فبإمكاني أن آتي برجل من الشارع فأقتله، وبرجل من السجن حُكِمَ عليه بالموت، فأفرج عنه.

فتعجب إبراهيم من غباء ذلك الملك، ولكنه أراد أن يثبت كذبه، فقال له: فإن كنت كما تقول، فالله تعالى يجعل الشمس تطلع من المشرق، فاجعلها تطلع من المغرب. فسكت الملك ولم يستطع أن يرد عليه، وانصرف إبراهيم من عنده.





وانتشر أمر إبراهيم عليه السلام في المدينة.
فالكل يتحدث عن نجاته من النار، وكيف أن الملك لم يستطع أن يرد عليه، وبدأ إبراهيم يدعو الناس إلى عبادة الله تعالى، ولكن لم يؤمن به إلا امرأة اسمها سارة، وشاب اسمه لوط، وهو ابن أخيه، فتزوج سارة، وحاول إبراهيم أن يقنع أباه بالإيمان بالله تعالى، ولكنه أصر على كفره، فأعلمه الله تعالى أن والده لن يؤمن، فأعلن إبراهيم البراءة منه، وهاجر من أرض قومه، إلى بلاد كثيرة، مثل فلسطين ومصر وغيرها يدعو إلى الله تعالى.

وفي يوم من الأيام طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، فسأله الله تعالى هل هذا عن شك في الإيمان؟ فأجاب إبراهيم ربه: أنه مؤمن أشد الإيمان، ولكن ليطمئن قلبه، فهي درجة من درجات الحب.

فأمر الله تعالى إبراهيم أن يأخذ أربعة من الطير، فيذبحها، ويفرق أجزاءها على الجبال، ثم يدعوها باسم الله، ففعل إبراهيم، فإذا الطير تأتي حية تطير في حضن إبراهيم عليه السلام.



وظل إبراهيم عليه السلام يدعو إلى الله تعالى، وقد رزقه الله تعالى من هاجر إسماعيل، ورزقه من سارة إسحاق، وعاشت هاجر وابنها إسماعيل في مكة، وكان إبراهيم عليه السلام دائم الطواف والرحلة إلى البلاد يدعو إلى الله تعالى، حتى وافته المنية، وأدى ما عليه من أمانة الله.

